HNSJ Humanitarian & Natural Sciences Journal
ISSN: (e) 2709-0833
www.hnjournal.net
مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
مجلة علمية محكمة
معامل التأثير العربي للعام 2020م = 0.44

عنوان البحث

المدينة الصحراوية وأهم مسارات الانتقال من البداوة الى التمدن

حمون حسان[1]

[1] دكتور في علم الاجتماع، باحث في مركز قضايا للأبحاث والدراسات، المغرب،
البريد الالكتروني: hammoun1976@gmail.com

تاريخ القبول: 2021/02/24م تاريخ النشر: 2021/03/01م

المستخلص

شهدت المدينة الصحراوية بالجنوب المغربي نهضة عمرانية واضحة المعالم خاصة في العقدين الأخيرين، وقد كان للحضور الفاعل للدولة الوطنية دور أساسي في ذلك، حيث رافق هذه النهضة العمرانية تحولات عميقة ومهمة في مجالات عديدة وعلى نحو خاص في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والمجالية، وكان من نتائج ذلك تأثر العلاقات الاجتماعية والبنيات الاجتماعية التقليدية للمجتمع الصحراوي الذي عاش زمنا طويلا في الطور البدوي، خاصة البنية العائلية والقبلية ونمط السكن، كما تبرز هذه التحولات بشكل جلي في تشكل مجتمع حضري بخصائص جديدة متأثرة بشكل أو بآخر بمستجدات الحياة العصرية مع بعض الترسبات البدوية، وفي الواقع، فإن الحياة المجتمعية المنبثقة من المدينة لازالت تمارس ضغوطها على الأنساق والبنيات السوسيوثقافية وكذا على سلوكات البدو المستقرين حديثا في المجال الصحراوي.

تقديم:

إن بروز المدينة كتجمع حضري كبير له خصائصه الحضرية كاتساع العمران ووجود مؤسسات إدارية واجتماعية واقتصادية وثقافية وظهور نمط اقتصادي استهلاكي والزيادة الكبيرة في تعداد السكان، لم تشهده الصحراء إلا ابتداء من ستينات القرن الماضي، وقد ساهمت عوامل عدة في ذلك منها توالي سنوات الجفاف وصعوبة الأوضاع الاقتصادية والأفاق الجديدة التي أصبحت تفتحها المدن المحدثة لفئات عريضة من أفراد المجتمع الصحراوي والزيادة الكبيرة في نسبة الهجرة من البوادي والقرى إلى المدن الناشئة، وباستقرار البدو بالمجالات الحضرية، ستبرز تحولات وتغيرات شملت مجموعة من السمات والخصائص والبنيات التي ميزت ساكنة الصحراء طيلة عقود من الزمن.

هذا التحول السوسيوحضري الهام في حياة البدو في الصحراء الذي رافق الانتقال من نمط الترحال والبداوة إلى نمط الاستقرار والتحضر، شكل ولازال أرضية لطرح تساؤلات من قبيل:

- كيف أدى الانتقال للعيش في المدينة الى احداث تغيرات هامة في الأنساق الاجتماعية وكذا العلاقات الاجتماعية للمجتمع الحساني البدوي؟
- ما مسارات ومظاهر التحول السوسيوحضري بالمدينة الصحراوية؟

أولا: التحديد المفاهيمي للدراسة:

1- البداوة:

إن الصحراء عبر تاريخها الطويل لم تعرف نهضة عمرانية ذات معالم واضحة، لقد كانت البداوة النمط الحياتي السائد لدى سكانها إلى وقت متأخر، كما أن المراكز الحضرية القليلة التي وجدت لم تتجاوز نمطها المعماري البسيط، سواء كانت عبارة عن قصبات أو قصور أو قرى وفي مرحلة لاحقة مراكز تجارية وعسكرية؛ والبداوة كنمط عيش من أقدم الأنماط الاجتماعية التي عرفها الكائن البشري ومن خلال هذا النمط تتحدد علاقته بالطبيعة باعتبار هذه الأخيرة توفر له موارد معاشه ووسائل اقتياته، وعبر هذه الموارد والوسائل "افتتح الإنسان صلته بالبيئة ينتزع منها رزقه"[1].

إن البداوة كظاهرة إنسانية تخص المجتمعات ما قبل الحضرية، وهي تلك المجتمعات التي توصف أحيانا بالبربرية أو الوحشية أو المتخلفة وإن كانت هذه التسميات لا تعكس بالضرورة حقيقة كونها مجتمعات لها حضارتها وثقافتها؛ وتتحدد البداوة كظاهرة من خلال ثلاثة عناصر هي: الوحدة البشرية الممثلة في التنظيم القبلي، القطيع وهو محور الاقتصاد الرعوي، الانتقال الدوري في رحلة ثابتة ومسالك مضبوطة أي ممارسة الانتجاع[2].

لقد أدى شح الموارد بالبيئة الصحراوية القاسية إلى التأثير على البدو، وتجلى ذلك في حجم الجماعات التي قطنت البادية وأصنافها وتنظيماتها وكذا ثقافتها وقيمها وأعرافها، يستتبع هذا القول أن البداوة ذات خصائص اجتماعية وثقافية تميز القاطنين بالبوادي والأماكن التي تفتقر إلى أي شكل من أشكال العمارة، كما أن الاقتصاد البدوي يتمحور حول الماشية ويرتكز على الانتجاع والارتحال بحثا عن الكلأ والماء؛ "وتقتضي البداوة أو العيش في البادية والإقامة فيها كثيرا من التنقل من مكان إلى آخر وراء الماء والكلأ، وتقوم حياة البدو فيها على تربية المواشي وحمايتها، وكانت تقوم في الأزمان السالفة على هذه الأمور وعلى الغزو والسلب"[3].

---

[1]. محيي الدين صابر ولويس كامل، "البدو والبداوة مفاهيم ومناهج"، المكتبة العصرية، بيروت 1986، ص: 16.

[2]– Françoise Aubin « anthropologie du nomadisme », Cahiers internationaux de Sociologie. Vol 56, 1974, p :124.

[3]. جبرائيل جبور، "البدو والبادية، صور من حياة البدو في بادية الشام"، بيروت، دار العلم للملايين، 1988، ص: 32 .

عموما يمكن القول إن البداوة حالة أو طور يسبق حالة أو طور التمدن والتحضر، والمجتمع الصحراوي يعطينا مثالا بارزا للمجتمع البدوي لكونه سكن البادية وعاش حياتها وأنساقها مدة طويلة قبل أن يعرف الاستقرار في العقود الأخيرة.

2- التمدن:

التمدن من المفاهيم التي يواجه بصددها الباحث السوسيولوجي اختلافا كبيرا في تحديد دلالاته نظرا للتداخل الحاصل بينه ومفاهيم أخرى متقاربة كالتحضر والتوطين والاستقرار والحضارة وغيرها، وقلما نجد من يحاول أن يبرز الاختلاف بين التمدن والتحضر في ظل توجه اغلب الدراسات إلى التعامل معهما كمفهوم واحد؛ خصوصا وأن المصطلح الأجنبي « Urbanisme » يحيل إليهما معاً، غير أن الباحث المغربي محمد جسوس أبرز الفرق الجلي بين المصطلحين عند حديثه عن الحواضر المغربية معتبرا "أن التمدن بالمغرب ظاهرة ديمغرافية وجغرافية أكثر منها ظاهرة سوسيولوجية وثقافية، وبصيغة أخرى تجدر الإشارة إلى أن المراكز الحضرية الجديدة، التي تبرز وتتنامى، لا تتوفر عادة على أهم مقومات المدن سواء من حيث البنيات التحتية، أو طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة أو طبيعة القيم والمعايير والمعتقدات القائمة في كثير من أحيائها وفي الكثير من سكانها، وهذا يدفعنا إلى القول بأننا نحن أمام ظاهرة تمدن بدون تحضر، ونحن أيضا أمام كثافة سكانية في المدن بدون بروز ثقافة أو حضارة مدينية جديدة تتسم بما تتسم به عادة المدن في العصر الراهن، أي بالتنوع، وباختلاف الرأي، وبحدة الصراع وبالتراتبات الكبرى، وانهيار آليات التضامن والتعاون بين السكان وبالفردانية والاتجاه نحو الاستهلاك أكثر من الإنتاج"[4].

يوجد التمدن إذن، في مرحلة سابقة على التحضر، ويحضر كمقابل للبداوة من حيث أنه إذا كانت البداوة هي العيش في البوادي والقفار فإن التمدن هو الانتقال للسكن في المدينة، وتتسع ظاهرة التمدن وتتعقد كلما أدى هذا الانتقال إلى التخلي الكلي عن النمط البدوي واندمج الفرد في حياة المدينة في كل تفاصيلها وتجلياتها بما في ذلك المستوى الثقافي والقيمي.

يتحول التمدن إلى تحضر عند اكتساب ثقافة المدينة، وتتغير السلوكيات والقيم والمظاهر وطرق العيش لتتكيف مع أساليب الحياة المدينية الجديدة والتي تفرضها المؤسسات والقوانين وما يرتبط بها من وظائف واتجاهات ملزمة وقسرية.

3- المدينة الصحراوية:

تمثل المدينة الصحراوية أنموذجا للمدن التي تتداخل عدة عوامل في نشأتها وتطورها منها التاريخي والبيئي والاجتماعي وكذا الثقافي؛ كما أن دراستها وتحليل الظواهر المرتبطة بها وسبر أغوارها يمكن الباحث من فهم مظاهر وتجليات التمدن وأثره على التحولات التي تعترض البنيات التقليدية للمجتمعات الصحراوية، وعليه سنحاول الوقوف عند دلالات المفهوم باستحضار العوامل التي ساهمت في نشأة المدن بالمجال الصحراوي وتطورها.

لم تعرف منطقة غرب الصحراء الأطلسية وبلاد الساحل على وجه الخصوص نهضة عمرانية ملحوظة، ولم تظهر بها مدن أو مناطق حضرية شبيهة بتلك التي كانت بالجهة الشمالية أو الجنوبية للمجال كفاس ومراكش... وقد ظل هذا الشح العمراني إن صح التعبير، ملازما لهذه البلاد على امتداد تاريخها إلى حدود منتصف القرن العشرين، حيث ساهمت عوامل عدة في بداية تشكل حضارة عمرانية، منها الفترة الاستعمارية التي وضعت أسس الحواضر الصحراوية. وقد كان لطبيعة المجال الصحراوي وصعوبة العيش به وغلبة طابع البداوة على أهله فضلا عن غياب سلطة سياسية مركزية، دور بارز في قلة المراكز الحضرية واقتصارها على نمط حضري بسيط كالقصور والقصبات والقرى.

[4]. محمد جسوس، "طروحات حول المسألة الاجتماعية"، منشورات الأحداث المغربية، 2003، دار النشر المغربية، ط 1، ص: 78/77.

وقد تشكلت هذه الأنماط الحضرية البسيطة إضافة إلى المراكز التجارية والعسكرية التي أنشأها الاستعمار، النواة الأولى لظهور المدن الصحراوية والتي أذنت بالانتقال الجذري من طور البداوة إلى طور التمدن والاستقرار، وأنتجت طغيان الطابع المديني عليها كما هو ملاحظ اليوم بالمنطقة.

أما القصور والقصبات والقرى كقصبة ڭلميم، قصبة السمارة، قصبة الدورة، دار اشبيكة، قرية تلمزون، قرية أسرير، دوار تغمرت وقصر أسا... فهي النمط السكني الأكثر انتشارا في بلاد الساحل؛ وقد ظهرت بعضها منذ الفترة الوسيطية والبعض الآخر ظهر في فترات لاحقة، وهي في الأغلب تواجدت على مسالك التجارة الصحراوية التي كانت نشيطة في تلك الحقب، وبظهور التجارة الأطلسية واندثار الصحراوية ستبرز مراكز ساحلية من إنشاء المستعمر كمركز الداخلة Billa Cisneros ومركز طرفاية Cap Juby.

وإذا كانت الدراسات التي أشارت إلى القصور الصحراوية ليست وفيرة والأبحاث التي تناولتها لم تتطرق إلى تعريفها تعريفا جامعا[5]، إلا أنه يمكن الاستئناس بالتعريف التالي: "القصر يطلق على التجمعات السكنية المحصنة في المناطق الصحراوية مجمعة ومشكلة أحياء وقرى"[6]، وبذلك تشكل القصور بالواحات الصحراوية بداية للاستقرار والتوطين؛ ورغم أنها "أخذت تكتسب هوية مدينية، إلا أن تأثيرها ظل محدودا للغاية على نمط العيش البدوي المهيمن على البدو الرحل"[7].

ويمكن أن نميز بين نوعين من القصور:

-**القصور الطينية:** وهي القصور المبنية بالياجور والحجارة المطلية بالطين الكثيف، هذه التقنية في البناء يلجأ إليها عند انعدام الحجارة الصلبة أو عندما تكون صلابتها وجودتها ضعيفة، وتوجد هذه القصور بواد نون وتندوف وباني؛

-**القصور الحجرية:** وهي قصور من الحجارة العارية والمتراصة بدقة وعناية بحيث لا يظهر فيها الطلاء الطيني وتوجد بتشيت وودان وشنقيط[8].

أما العمارة السكنية بهذه القصور فهي تتميز بمستوى عالٍ من الانتظام الطوبولوجي، إذ يحتوي المسكن على نفس العناصر الثابتة كالسقيفة والصحن والحجرات المطلة على الصحن والمخزن والحوش الخاص بالحيوانات الأليفة. وتحدد ملامح تصميم السكن بالرجوع إلى عاملين أساسيين: يتعلق الأول بتمثل الرحل لحياة الاستقرار وتأثير ما يحملونه من رواسب حياة الترحل، أما العامل الثاني فيتعلق بغياب الأمن والخوف من غزو القبائل المحاربة وهو ما أثر جليا على تصميم هذه القصور[9].

كما يبرز دور العامل البيئي في التأثير على تصميم المسكن الصحراوي التقليدي سواء بالقصور والقصبات أو بالقرى والمداشر، فمعطيات المناخ وتوفر مواد البناء المستمدة من الطبيعة المحيطة ساهمت بدورها في تشكل وتطور العمارة الصحراوية؛ كما أن تجارة القوافل ولحظات الانفتاح على المؤثرات الخارجية الوافدة أثر بدوره على طبيعة تكيف المعمار الصحراوي.

تمثل ڭلميم أقدم القصور المتواجدة شمال الصحراء الأطلسية، وتشير الرواية المحلية إلى أن أول من بنى قصر ڭلميم هو "عبد

---

[5]. أنظر: أحمد مولود ولد أيده الهلال، "مدن موريتانيا العتيقة: قصور ولاتة وودان وتشيت وشنقيط"، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة و النشر، الرباط، 2014، ص: 34.

[6] – Capot-Rey *Robert* «L'Afrique blanche française, Le Sahara Française » T02, Presses Universitaires de la France, Paris 1959, p :234.

[7] – Rahal Boubrik, « De la tente à la ville: la société sahraouie et la fin du nomadisme». La croisée des chemins, Rabat, 2018, p :86.

[8]. أنظر: أحمد مولود أيده الهلال، مرجع سابق، ص: 53.

[9]. نفس المرجع، ص: 509/508.

القادر بن الحسن" وهو الجد الرابع للشيخ بيروك أحد أهم الشخصيات بالمنطقة، بعدما اشترى قطعة من الأرض من أبناء حسون السملالي[10]، ويعود تاريخ نشأتها إلى حوالي منتصف القرن 17م كنقطة عبور أساسية لقوافل التجارة الصحراوية.

وتتضمن كَلميم ثلاثة مواقع أولها "أكَادير" وهو يقع على تلة، والثاني "القصبة" وتقع جهة الغرب من الموقع الأول ويسكنها جل زعماء المنطقة، أما الثالث "القصر" فهو المكان الذي تقطنه غالبية السكان المحليين[11].

بنيت منازل قصر كلميم عموما من الطين الممزوج بالقش وبعضها بالحجارة وعليها طلاء، أما المساجد فهي بسيطة لا يوجد بها أي شكل من أشكال الترف[12].

وقد ساهم موقع المدينة كحلقة وصل بين شمال المغرب وجنوبه، أن تعرف طيلة تاريخها ازدهارا اقتصاديا ملحوظا وبها ظهرت طبقة أرستقراطية من التجار كعائلة بيروك.

أما قصبة السمارة فهي نموذج للمعمار ذي الوظيفة الدينية، حيث بناها "الشيخ ماء العينين" سنة 1898م بالجهة الشمالية لوادي الساقية الحمراء بهدف تأسيس حاضرة تشكل قاعدة للجهاد ضد الفرنسيين ومكانا لتدارس العلوم الشرعية والتعليم، "وقد وضع أساس قصبة السمارة على ضفاف إحدى أودية الساقية الحمراء"[13]. في سبيل إتمام قصبته ذهب الشيخ إلى مراكش لجلب بعض مواد البناء العصرية ومهندسين، كما استطاع الحصول على دعم السلطان المولى عبد العزيز الذي أرسل إليه ما يحتاج إليه "كالخشب والمسامير والأقفال و الحبال وما أشبه ذلك من مواد البناء"[14].

لقد امتد البناء بالسمارة إلى حدود سنة 1902م، مع الإشارة كون القصبة شيدت على طريقة القصبات المغربية الموجودة بوادي درعة وتافيلالت، أما الشكل المعماري ومكوناته فيحدده الوصف التالي: "16 غرفة معدة على النمط العربي للشمال الإفريقي مشكلة مجموعة من البنايات متجمعة في نفس المكان، وبهذا المكان يمكن أن يظهر ركن أهل بكار(من أولاد دليم) والدار أو دار الكَرب (القرب الخاصة بالماء) وحوش الطعام أو تحويطة للتغذية ومحلات سيداتي ومحمد الهيبة وشبيهنا والولي (الأربعة أبناء الشيخ) ومخزن مواد الطيب ومخزن التموين والمسجد ومحل التهالات (فخذة من الرقيبات) إلخ... أما الشيخ ماء العينين فقد حجز لنفسه القبة"[15].

إلى جانب القصور والقصبات شكلت المراكز الحضرية التي أسسها المستعمر أنوية للمدن الصحراوية الناشئة كالطنطان الذي شيده الإسبان سنة 1938م كمركز عسكري إسباني، يضم مركزا للمراقبة إسوة بالعيون، وابتداء من هذه السنة أصبحت تابعة لمركز طرفاية ومتبوعة بتويزكي الرمث وتلمزون في إطار التنظيم الإداري الذي كان يعرف إبانها بـ "المنطقة الشمالية للصحراء"[16]. وقد استمدت اسمها من البئر الذي كان يتوافد عليه الرحل بواد بن خليل وهو بئر «طينطان» الذي سمي كذلك للصوت الذي يحدثه الماء في قعره.

أما المكونات المعمارية التي تميز المركز الحضري، فيغلب عليها الطابع الإداري والأمني حيث "الحي الإداري وبالقرب منه

[10]. محمد الشرايمي، "نشأة وتطور المدن الصحراوية"، مطبعة طوب بريس، الرباط،2015م ، ص:41.

[11]. الشرايمي، مرجع سابق، ص: 42.

[12]. الشرايمي، نفسه، ص: 43.

[13] – Rahal Boubrik , op.cit, p : 128/129.

[14]. محمد الشرايمي، مرجع سابق، ص:80.

[15] – Mahmadou Ahmado Ba « Apropos de Smara » L'Afrique française, Février, 1934, p : 96.

[16]. محمد الشرايمي، مرجع سابق، ص: 141.

بعض المساكن الخاصة (للصحراويين) ... وبذلك المكان أيضا إدارات المفوضية والمستوصف والمدرسة وبعض المقرات الرسمية"[17].

وقد شيدت إسبانيا المرافق الاجتماعية كالمستوصف والمدرسة من أجل جلب البدو ودفعهم للاستقرار وتوطينهم في إطار سياسة التهدئة والمراقبة التي كانت تنتهجها منذ احتلالها للصحراء سنة 1934م.

المدينة بالمجال الصحراوي المدروس فهي المدينة التي نشأت وتطورت انطلاقا من نواة أصلية تتمثل في القصور والقصبات كحال كليميم والسمارة أو في المراكز التجارية والعسكرية التي أنشأنها المستعمر من أجل مراقبة البدو، والحد من تحركاتهم في إطار سياسة التهدئة التي تروم احتلال المنطقة بأقل التكاليف البشرية والمادية؛ وقد ساهم حضور الدولة الوطنية في التوسع العمراني للمدن الصحراوية، وتسهيل عملية اندماج السكان المحليين وتوطينهم بها بعد استرجاع هذه المدن الى حضيرة الوطن، وتتميز المدينة الصحراوية بهيمنة مكون أو مكونات عشائرية وقبلية خاصة تلك التي تستوطن المجال الترابي الذي تشكلت فيه المدينة، وهذا ما يعزز من حدة العلاقات الاجتماعية المبنية على القرابة في هذا النوع من التجمعات الحضرية.

ثانيا: دور الدولة في عملية الإدماج الحضري:

باسترجاع اقليم الصحراء، عرفت المدينة الصحراوية انتقالا سريعا من مجال حضري بسيط أغلب عمرانه بنايات قليلة إلى مجال حضري يشهد نموا متزايدا ومتسارعا باستمرار وضغط متزايد للساكنة الحضرية رغم بعض الفترات التاريخية التي شهدت ركودا في هذا الجانب خاصة فترة التسعينات من القرن 20م.

ومع الارتفاع المستمر للطلب على الخدمات الأساسية كالسكن والصحة والشغل والتعليم، فإن الدولة تحولت إلى الأداة الوحيدة من أجل استكمال إلحاق المدينة بالوطن وإدماجها في السياق الوطني وتوفير المستلزمات الضرورية لسكانها على جميع المستويات. لقد أخذت الدولة على عاتقها تنمية وتطوير المدن الصحراوية وإلحاقها بركب التنمية على غرار المدن الشمالية ووضع الأسس لنهضة عمرانية ملحوظة.

واجهت الدولة في السنوات الأولى لاسترجاع المدينة عوائق جمة تمثلت في التوافد الكبير على المركز الحضري، وظهور تجمعات بشرية يطغى عليها الطابع العشوائي وغياب مطلق للتجهيزات الأساسية والبنيات التحتية الضرورية، ذلك ان عوامل التوطين والاستقرار بالأوساط الحضرية بالصحراء جاء نتيجة عوامل منها الضغط القسري الذي تجلى في مخلفات عملية "أوكفيون" التي أرغمت البدو على ترك أماكنهم بالبوادي والالتحاق بهذه المراكز للاحتماء من القصف، وفقدان الكثير من قطعان الماشية بسبب العملية المذكورة وتوالي سنوات الجفاف؛ وإلى جانب ذلك كانت هناك عوامل أخرى تمثلت في المساعدات والتحفيزات المقدمة للأهالي من جانب السلطات الاستعمارية كالشغل والتطبيب والتمدرس وبعض الإعانات المادية، كما كان للصراع السياسي حول الصحراء بين المغرب والبوليساريو دورا في استكمال التحاق البدو بالمدن الناشئة، مما استوجب توفير التجهيزات الضرورية وبالتالي فرض على أجهزة الدولة ومؤسساتها ضرورة مضاعفة الجهد لمعالجة المشاكل المطروحة ووضع الأسس لتحقيق الاندماج ودمج المدن الصحراوية في المشاريع والاوراش الكبرى.

يمكن تقسيم مراحل تدخل الدولة في عمليات الإدماج الحضري بالصحراء إلى مرحلتين:

- **المرحلة الأولى:** ما قبل حدث المسيرة الخضراء أواخر سنة 1975م، حيث كان هاجس الدولة فيها هاجسا أمنيا بامتياز، فباقي المدن الصحراوية لازالت تحت الاستعمار الإسباني لذلك تحولت مدينة طانطان إلى مدينة عبور تمر عبرها كل وسائل الدعم اللوجستيكي للمناطق المستعمرة، وأصبحت طانطان سوقا تجاريا كبيرا للتبادل حيث يتم إحضار السلع الإسبانية من العيون واستبدالها

[17]– نفسه، ص: 142

بالسلع المغربية؛ وخلال هذه المرحلة تميز الفضاء العمراني بهيمنة العمران العسكري كالثكنات والإدارات العسكرية وبعض الطرق الرئيسية تربط المدينة بالمناطق الشمالية؛

– **المرحلة الثانية:** ما بعد سنة 1975م، فقد شكلت المسيرة الخضراء نقطة انطلاق لأهم التحولات التي عرفتها المدن الصحراوية، حيث أولت الدولة اهتماما كبيرا لإنجاز الأوراش الكبرى والرفع من وثيرة الادماج الحضري والتشجيع على الاستقرار وتسريع عمليات وإجراءات التوطين وتقديم التحفيزات والإعانات كمناصب الشغل وإلغاء الضرائب ودعم المواد الأساسية.

كان للدولة حضور قوي في التخطيط الحضري والتنموي للمدينة كما يتجلى في إنشاء البنيات التحتية والطرق والربط بشبكات الماء والكهرباء وتمديد قنوات الصرف الصحي وإقامة محطة لتحلية مياه البحر... كل هذا شجع على الاستقرار بالمدينة وتوافد العديد من السكان من المناطق الشمالية لإعمارها، فأصبحت الساكنة المحلية مزيج من السكان الأصليين والسكان الوافدين، وكان لهذا التنوع السكاني آثار إيجابية على مستوى تطور العمران والاندماج الحضري رغم جملة من الصعوبات والإكراهات المطروحة كنمط العيش البدوي، شساعة المجال الصحراوي، قساوة المناخ...

كما تجلى حضور الدولة ودورها الفاعل في الادماج الحضري تشجيع الاستثمار من خلال توزيع البقع الأرضية والقطع الزراعية للمستثمرين والأعيان وإعفاء الشركات المسجلة بالمدن المحدثة من الضرائب وتقديم تحفيزات مالية أخرى.

كما عمدت الدولة إلى إنشاء مصالح إدارية لتقريب الخدمات العمومية للساكنة وإنشاء المدارس والمراكز الصحية ومستشفى إقليمي والمصالح الخارجية لمختلف القطاعات الحكومية؛ وفي مجال الإنعاش الوطني وزعت السلطات المحلية بطائق للدعم المالي على المعوزين والأرامل والفئات الهشة وأيضا على كبار السن والأعيان كمدخول شهري، وساهم هذا القطاع في تنمية المدينة من خلال دوره في بناء الطرق والسدود التلية والمقار الإدارية وتشغيل اليد العاملة وحفر الآبار ودعم الأعلاف، "إن تدخل الدولة عبر مصالحها المجالية كان له بالغ الأثر وانعكاسات كبيرة تمثلت أساسا في جلب البدو إلى المجال وتدعيم الاستقرار بالمناطق الصحراوية، كما خلف وراءه تحولات عميقة همت مجمل حياة البدو الرحل، حيث أصبحنا اليوم أمام ساكنة تعتمد على السكن المغلق بدل السكن المفتوح (الخيمة)"[18].

لاشك ان هذه الأدوار والإجراءات التي باشرتها أجهزة الدولة المختلفة ستؤدي إلى خلخلة البنيات التقليدية لمجتمع عاش طويلا ضمن روابط وأنساق بدوية تقليدية، ومن بين هذه البنيات التي تأثرت بشكل كبير بعمليات التوطين والإدماج الحضري نذكر بنية القبيلة، ذلك أن إدماج الجماعات القبلية في ديناميات المدينة المركبة والمعقدة تستلزم توفر شروط جديدة بعضها يرتبط بالتنظيم التقليدي والحياة البدوية كتواجد المركز الحضري بالمجال الترابي القبلي وأشكال التضامن العائلي والقرابي ونوعية الأنشطة الإنتاجية... إلخ، وبعضها الآخر يتعلق بالحياة المدينية والتدبير الحضري كالتنظيم الإداري وتشكيل الجماعات المحلية والمؤسسات الأخرى وتمركز الأنشطة الاقتصادية... وهذا ما نلمسه في قيام الدولة بتوزيع القبائل على المجالات الحضرية حيث استقرت قبائل يڭـوت وأيت لحسن وبعض عائلات أيت باعمران وأيتوسى بطانطان وتوزعت قبائل أخرى على مدن العيون، الداخلة... هكذا ستتحول القبيلة من الحالة التي كانت تشكل فيها إطارا عاما يحتضن مختلف أنشطة وممارسات الأفراد ويؤطر قيمهم وتوجيهاتهم إلى الحالة التي ستصبح فيها كياناً تابعاً للمنظومة الدولوتية التي ستعمل على تجريده من أدواره الأساسية ودمجه في صلب قوالب هذه المنظومة إداريا واجتماعيا وسياسيا، وتوظيفه في حالات معينة تحتاج فيها الدولة إلى التحشيد القبلي لخدمة أهدافها خاصة في الصراع السياسي حول قضية الصحراء. لقد أخذت الدولة الوطنية بعين الاعتبار التراتب الاجتماعي الذي كان سائدا ما قبل الاستقرار وشكلت نخبا سياسية جديدة على شاكلة الزعماء التقليديين (شيوخ القبائل والفخذات) لكن بأدوار وبتركيبة مستحدثة تبعاً لمستجدات الحياة الحضرية في عصر المدينة، "وبذلك حافظت على الأعيان والوجهاء التقليديين داخل القبائل وخلقت زعامات جديدة غالبيتها

[18]. محمد دحمان، "الترحال والاستقرار بمنطقة الساقية الحمراء ووادي الدهب"، مطبعة كوثر برانت، الرباط، ط 1، 2006،، ص.201.

مرت بالتعليم العصري مع ترسيخ للأطر القبلية المتوارثة ضمن هياكل إدارية قارة وثابتة"[19].

استفادت هذه الزعامات القبلية المدينية من محاباة ودعم أجهزة الدولة لها وعمدت بالمقابل إلى ممارسة أدوار تأطيرية لأفراد كل قبيلة خاصة أولئك المرتبطين بهذه الأجهزة كموظفين ساميين ورجال سلطة، وبالتالي إنجاح سياسة الدولة في القيام بالتوظيف السياسي للقبيلة والتحشد القبلي... ويعتبر المجلس الاستشاري الخاص بالأقاليم الصحراوية إحدى أدوات الدولة الموجهة لهذا الغرض.

لقد حلت الدولة محل القبيلة ولم يعد الفرد مرتبطا بجماعته القرابية بشكل مباشر، كما لم يعد يتلقى منها حاجياته او يجد فيها الحماية والشعور بالانتماء، لان متطلباته المتعددة والمتنوعة في المدينة ليس بمقدور القبيلة توفيرها، كما ان الدولة التي خلقت هياكلها ومصالحها مجموع هذه الحاجيات والمتطلبات هي الوحيدة الكفيلة بتحقيقها وتوصيلها للأفراد. وباختفاء الروابط التقليدية القبلية اختفت المظاهر والأنساق المرتبطة بها كفرض الغرامات والمداراة وذبيحة الولاء وعلاقات التحالف بالتزامن مع اندثار التجمع القبلي «لفْريگ» ومؤسسة الزعيم أو شيخ القبيلة أو الفخدة.

إن حضور القبيلة بالمدينة لازال ممكنا في ظل استمرار الدولة باحتضانها وتوظيفها وتشكيل الهياكل القائمة على تمثيلها، كما أن تمركز السلطة في يدها فرض على الأفراد تغيير ولائهم من القبيلة إلى الدولة والانخراط في منظوماتها.

ومن البنيات التي تأثرت بتدخل الدولة في الفضاء المديني مؤسسة الأسرة، لقد كانت هذه الأخيرة أول ما يستقبله الطفل في حياته ويكتسب منها مجمل خبراته وتجاربه ويتعلم عبرها منظومة القيم والثقافة الخاصة بجماعته، كما تشكل الأسرة المجال الوحيد للفرد لتلبية حاجياته الأساسية في ظل اقتصاد عائلي مميز للمجتمع الرعوي؛ لكن الانتقال إلى المدينة سيحمل معه تغيرات عميقة مست بالدرجة الأولى أدوار ووظائف الأسرة، وعليه لم تعد الأسرة الصحراوية البدوية صلة الفرد بالعالم الخارجي، ولم تعد فضاءه الوحيد في التعلم واكتساب تجارب وخبرات جديدة، إذ أن تغير الأوضاع ودخول عوامل جديدة قلص إلى حد كبير من أهمية وفاعلية ودور الجماعات الأولية، فالمؤسسة التعليمية احتكرت المسألة التربوية لنفسها وأفقدت الأسرة تأثيرها في هذا الجانب، لأن المنظومة التعليمية وأدواتها التربوية والإدارية أكثر تعقيدا من أن تستطيع الأسرة إنجازه أو تتبعه، عكس مرحلة البادية حيث كانت الجماعة داخل «لفريگ» مسؤولة عن الجانب التعليمي للطفل الذي يلج إلى المحظرة لتلقي أبجديات القراءة والكتابة على يد فقيه أو «لمرابط» الذي تتعاقد معه القبيلة أو المجموعة القرابية على تعليم الصبيان مقابل أجر متفق عليه أو مقابل البقاء في القبيلة وتحت حمايتها. وإذا ما أراد المتعلم استكمال تعليمه فعليه السفر إلى المدن الكبرى كمراكش وسوس وفاس... وتبقى فئة الزوايا الأكثر تدريسا لأبنائه نظرا لتخصصها من جهة ولحالة التنافس مع حسان القبائل التي تضع التعليم في مرتبة ثانية بعد الحرابة.

لقد عمدت الدولة إلى إنشاء المدارس وتعميم التمدرس على جميع الفئات، وبذلك لم تعد هناك تلك التمايزات بين أبناء القبائل المحاربة والزوايا والتابعين، ومعها اندثرت ظاهرة التخصص الاجتماعي حيث يصبح أبناء المحاربين محاربين وأبناء الزوايا متعلمين وأبناء الفئات التابعة متخصصين في الحرف اليدوية.

ومن الظواهر الأخرى والتي تأثرت بفعل التمدن وسياسة الدولة في الإدماج الحضري، نذكر العرف والذي كان بمثابة النظام المؤطر للعلاقات بين الأفراد والمجموعات القبلية في حياة الترحال والبداوة، إنه عقد يتضمن العقوبات الزجرية جراء تجاوزات يقوم بها الأفراد، والغرض منه الحفاظ على الكيان القبلي واستمرارية وجوده؛ أما اليوم فقد حلت منظومات قضائية متعددة المهام والوظائف مسطرة وفق أنظمة قانونية موجهة ومؤطرة للأفعال والسلوكات التي تستوجب العقاب، لذلك بدأ الناس يتخلون عن القواعد العرفية ولم يبقى منها إلا ما يتعلق بالصلاحيات الشفوية المخولة لكبار السن وزعماء القبائل والفخدات الذين يتدخلون عندما يحدث نزاع ما، والهدف ليس الحلول محل المنظومة القانونية ولكن تحقيق التراضي بين المتنازعين للتأثير على مسار مسطرة التنازع.

[19]. نفسه، ص:233/232.

وعلى العموم، نخلص في نهاية هذا المبحث إلى أن حضور الدولة وتدخلها في الحياة الحضرية بالمدينة الصحراوية يعد من أهم تجليات التمدن، لقد كان للدولة دور رئيسي في خلق وتطوير المراكز الحضرية وتهيئة مجالاتها العمرانية وإنشاء مرافقها الإدارية والخدماتية ووضع بنياتها التحتية وتزويدها بالمستلزمات الضرورية وخلق فرص الشغل داخلها، وبالتالي فإن سيرورة التمدن مرتبطة بشكل أساسي بجهاز الدولة ومصالحها المختلفة، لذلك فإن عمليات التوطين والاستقرار يتحكم فيها العامل الخارجي بشكل مباشر إلى جانب مجتمع حضري مختلف بدرجة كبيرة عن المجتمع البدوي الذي كان عليه المجتمع الصحراوي فيما مضى.

ثالثا: تشكل المجتمع الحضري:

يؤدي الاستقرار في المدينة إلى إحداث قطيعة مع نمط العيش السابق وشكل التجمع البشري التقليدي خاصة بالنسبة للتجمعات الرعوية، وفي المقابل تظهر ملامح نمط جديد للعيش وتجمع بشري سمته الأساسية ضعف الروابط والهياكل القديمة وتلاشيها لصالح روابط وهياكل حديثة تفرضها أنساق ومنظومات الحياة المدينية التي تخضع لمنطق التحديث والعصرنة، وعليه وبالتزامن مع نشوء المؤسسات الإدارية والسياسية وتطور المنظومات القانونية واتساع رقعة التحديث، فإن المجتمع الصحراوي سيعرف تحولا عميقا بموجبه سينتقل من مجتمع بدوي مكون من قبائل مشتتة وكيانات اجتماعية مستقلة بذاتها، إلى مجتمع حضري مؤلف من مكونات قبلية وعرقية وهويات متعددة ومتنوعة خاضعة لنفس النسق الإداري والقانوني والأخلاقي الذي تمثله الدولة ومؤسساتها.

إذا ما أخذنا بالمفاهيم الإيكولوجية لسوسيولوجيا روبرت بارك بمقدورنا أن نعتبر أن الاستقرار بالمدينة جعل البدوي ينتقل من العيش في وسط طبيعي إلى العيش في وسط ثقافي أوجدته المدينة؛ يدل هذا على أن المدينة ليست مجرد مباني وطرقات وإدارات، بل هي وقبل كل شيء حالة ذهنية وثقافية خاصة مغايرة للثقافة البدوية ومحكومة بالرأي العام والقانون الوضعي، أي أن الإنسان "بانتقاله من العيش مشتتا بين قبائل وقسمات قرابية إلى العيش في حواضر وتجمعات متكاثفة، قد عمل بذلك على استبدال «الفوضى» القائمة على حرية الصراع والتنازع بنظام قائم على "الضغط الاجتماعي والحرية معاً"[20]. فثقافة المدينة والمجتمع الحضري يعملان وفق هذا المنظور على دمج المهاجر القادم من وسط مختلف في أنساقهما بالتركيز على دور الإنسان كفاعل وليس كبنية أو موضوع تابع وخاضع لعوامل خارجية ذات بعد بيئي، والفاعلية البشرية هنا تجسيد لمستوى النضج الذي بلغه الإنسان المديني باعتبار المدينة سكن الإنسان المتحضر بتعبير "روبرت بارك" الذي يقول: "إن النظام القديم المؤسس على الأعراف والتقاليد هو بمثابة نظام مطلق وقدسي (...) والنظام الاجتماعي الجديد على العكس من ذلك هو إلى حد ما إبداع مصطنع"[21].

بهذا تخلق الهجرة من البادية إلى المدينة سياقا جديدا في سيرورة التحول داخل الأوساط الحضرية على مستوى التشكيلات الاجتماعية والتفاعلات بين هذه التشكيلات، وذلك من خلال الإدماج الحضري وتمثل الوافدين الجدد إلى المدينة لقيم وقواعد الحياة الحضرية مع الاحتفاظ بالتمثلات والتصورات الخاصة، "كل فرد قادر على تغيير مكانه في المجال بمقدوره اكتساب تجربة خاصة به"[22].

ظهرت اول ملامح المجتمع الحضري في العصر اليوناني، ففي المدينة ـ الدولة Cité–Etat التي عرفتها اليونان سيتم استبدال المجتمع القائم على أساس القرابة والعرف والعائلة بمجتمع قائم على أساس حقوق المواطن والتنظيم السياسي. ومع إفرازات عصر الحداثة والتنوير في أوربا ستظهر الملامح الأولى لمفهوم المجتمع المدني وهو مجتمع حضري سياسي يضع نفسه مقابل الدولة كإطار اجتماعي وسياسي مشارك في تأطير الأفراد، وفاعل في إقرار حقوقهم وتحقيق مصالحهم وخلق أجواء جديدة للنقاش العمومي

[20]. عبد الرحمن المالكي، "مدرسة شيكاغو ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة"، افريقيا الشرق، الدار البيضاء 2016.، ص:135.

[21] – Robert Ezra Park, « La ville comme laboratoire sociale », in Yves Grafmeyer, Isaac Joseph, L'École de Chicago. Naissance de l'écologie urbaine. GRAFMEYER (Y) et JOSEPH (I). Aubier, Paris, 1979., P :165.

[22] – Robert Ezra Park, « Communauté Urbaine », Modèle Spatial et Ordre rurale, in Yves Grafmeyer, Isaac Joseph, *L'École de Chicago. Naissance de l'écologie urbaine*, p :204.

الذي احتضنته فضاءات المدينة الأوربية، وفي هذا الصدد يقول روبرت بارك: "إن السيرورة السياسية تشمل النقاش السياسي وتعريف المشاكل وتكوين الرأي السياسي والتعبير عنه وانتخاب المشرعين وصياغة وإصدار التشريع وتأويل وتطبيق القانون، وأخيرا رضى وامتثال كل المجموعة لمختلف تطبيقاته، وبهذه الطريقة ينتهي القانون إلى أن يصبح جزء من العادة ويترسخ في تقاليد المجموعة"[23].

من جهة أخرى، ساهم التقدم العلمي والتكنولوجي في العصر الحالي والذي شمل مختلف الميادين خاصة ميدان الاتصال والنقل والمواصلات في تقوية دور المدن وجعلها العناصر المهيمنة في الحضارة الإنسانية المعاصرة وبالتالي الزيادة في وثيرة التطور العمراني والحضري والتلاشي المتسارع للأنماط التقليدية والأوساط الحاضنة لها كالقرى والتجمعات القرابية؛ فالمدينة التي تحتكر الأنشطة التجارية والصناعية والإدارية والترفيهية والمنشآت المرتبطة بها أصبحت قوة إغراء وجلب مما أفضى إلى هيمنتها على الحياة المعاصرة وتحولها إلى قوة جذب ومركز تأثير، وهو ما يسميه لويس وورت "بالتقوية التراكمية للخصائص المميزة لنمط العيش المرتبط بالنمو الحضري"[24].

لقد سمحت أجواء الحرية والتقدم التكنولوجي والمشاركة السياسية في تنامي قيم الاستقلالية والفردانية داخل الفضاء المديني، وبالتالي انسلاخ الأفراد عن الروابط التقليدية والأبوية وخلق عوالمهم الخاصة والتعبير عن خصوصياتهم وتمايزاتهم والاندماج أكثر في جماعات مغايرة للجماعات الأولية التي تمثلها مؤسسة العائلة او العشيرة او القبيلة وتشكيل قواسم مشتركة جديدة بين الأفراد بعيدا عن العصبة الدموية والانتماء القرابي.

كل هذا أدى في نهاية المطاف إلى بروز تشكيلات اجتماعية ومهنية قوامها خصائص أفرزتها الحياة الحضرية من قبيل: المهن، المواهب، الآداب والفنون، العمل النقابي، العمل السياسي، الجمعيات، النوادي، ... وعليه أصبح الفرد في المدينة قادراً على الانخراط في مجموعات عديدة ومختلفة تبعا لمواهبه ورغباته ومجالات عمله، والميزة الأساسية لهذه المجموعات انها وليدة ظروف المدينة وشروطها التي تمارس نوعا من الإغراء على الأفراد لأنها تسمح ببروز رغبات كانت مكبوتة ومقيدة بأغلال القرابة والقبيلة والتقاليد، وتفتح المجال للتعبير عن المشاعر والأحاسيس والمواهب والملكات الذاتية.

إن تشكل المجتمع الحضري بالمدن الصحراوية عرف تطوراً تدريجيا من هيمنة منطق القرابة في البدايات الأولى للاستقرار إلى الحضور القوي لمنطق الاستقلالية الفردية في السنوات الأخيرة، ويعود هذا بالدرجة الأولى إلى خصوصية المجتمع الصحراوي الذي عاش قرونا في نمط الحياة البدوية، إن وجود الجماعات القرابية التي برزت مع نشأة المدينة الصحراوية على شكل تجمعات متجاورة تقطن نفس الأزقة ونفس الأحياء السكنية، إنما يجد تفسيره في كون هذه الجماعات تشكل ميكانزم دفاعي للمهاجرين الوافدين ساعدهم على التكيف والتأقلم مع متغيرات الحياة الحضرية واستيعاب متطلبات الانتقال والمرور من النمط التقليدي إلى النمط العصري. لقد وجد البدو أنفسهم بعد أن كانوا قبائل متعددة ومشتتة لكل كيان قبلي أعرافه ونظمه الاجتماعية والسياسية تعيش في مجال شاسع، ضمن تجمع بشري واحد مكثف وجامع لجماعات ومكونات متباينة ذات أصول وخصائص مختلفة؛ من هذا المنطلق سيتولد لديهم إحساس بعدم الانتماء إلى أية فئة أو طبقة أو بالانتساب المؤقت لجماعة ما ومحاولة اكتشاف الخصوصية التي تميزهم عن الآخرين، وبالتالي فإن وضع البدوي في ظل هذه الوضعية التي تطبعها الحيرة والتردد، هو وضع انتقالي يحاول الحفاظ على الخصائص القديمة والاندماج أو تملك الخصائص الجديدة، وهو الأمر الذي وجد عند الجيل الأول من المستقرين بالمدينة. إن الخاصية المميزة لهذه التجمعات تتمثل في كونها تجمع سكاني وليس اجتماع بشري، والنتيجة عدم التجانس الاجتماعي الذي يفضي بدوره إلى التنوع في مختلف المستويات: اقتصاديا، ثقافيا، مهنيا، سياسيا...

فرضت ظروف المدينة ومظاهرها على الفرد أن يتغير ويتبدل للانسجام مع الواقع الجديد، لقد تم تعويض الأعراف بالقوانين الوضعية فأصبح الإنسان مجبراً على الاعتماد على عبقريته وليس على غريزته أو على التقليد، ومنه سينبثق الفرد كوحدة للتفكير

[23]. انظر: عبد الرحمان المالكي، مرجع سابق، ص: 195.

[24]. نفسه، ص: 203.

والفعل كما يرى روبرت بارك[25]. يعيش الفرد اليوم في المدينة الصحراوية تحت طائلة ضغط هائل من جهتين: جهة التقاليد القبلية وترسبات حياة الترحال والبداوة والتي لازالت سارية بفعل ذاكرة كبار السن وتأثيرهم، وإلى حد ما بسبب السلطة ونزعتها لإحياء المعطى القبلي ولو على المستوى السياسي، وجهة الحداثة والعولمة والانفتاح التي تكثفها المؤسسات والأدوات الحديثة من خلال وسائل الاتصال الجماهيري ومناهج التعليم وتأثيرات الجماعات الجديدة والعلاقات المتشابكة والقوانين...

من إفرازات المجتمع الحضري بالصحراء الوعي بالاختلاف الحاصل بين الجماعات القرابية، والتوجه نحو قبول ذلك الاختلافات والرضوخ لقواعد الضبط الاجتماعي باعتبارها الأداة اللازمة لاستمرار الاستقرار والأمن داخل المجتمع وتوحيد كل الجماعات التي تتنافس فيما بينها، ويحتدم هذا التنافس في مناسبات معينة كالإنتخابات مثلاً. وببلوغ هذا التنافس أقصى درجاته يحدث الصراع الذي يقوي الشعور بالانتماء للجماعة القرابية، غير أن حدة الصراع تصبح مهددة للجميع، الأمر الذي سيستدعي التفاعل مع الأوضاع الجديدة للحياة المدينية والتأقلم مع المؤسسات المنبثقة عنها.

يؤدي تشكل المجتمع الحضري إلى إحداث تغييرات عميقة في صلب المؤسسات الأولية التي تمثل صلة الفرد بالمجتمع، ومن هذه المؤسسات مؤسسة الأسرة التي فقدت كثيرا من أدوارها كإطار موجه ومتحكم في توجيه الفرد وزرع القيم التقليدية في وجدانه، لم تعد الأسرة محور الحياة الاقتصادية والاجتماعية كما كانت في الماضي، بل تعرضت "لتفكك عميق في بنيتها التي كانت تنعش التكيف الفردي"[26]، لقد حلت مؤسسات جديدة محل الأسرة وأصبحت تضطلع بأدوارها مما ساهم في تقليص دورها في الحياة الاجتماعية، الأمر الذي ساهم في سرعة الانتقال من المجتمع البدوي التقليدي إلى المجتمع الحضري المعاصر، وقد كان لعوامل عديدة دور في هذا التحول نذكر منها انتشار ظاهرة الزواج المختلط بين أفراد من قبائل مختلفة مما نتج عنه ميلاد أجيال جديدة غير خاضعة لقيود الأنماط الاجتماعية التقليدية.

مما لاشك فيه أن اكتشاف الأشكال النمطية للفعل والتنظيم الاجتماعيين اللذين ينبثقان في الوسط الحضري الصحراوي، يمكنه أن يساعد في فهم حجم وقوة حضور الخصائص المميزة للظاهرة الحضرية بالمدينة الصحراوية، وعليه فبقدر ما تكون المجموعات الاجتماعية كثيرة العدد وكثيفة ولا متجانسة بقدر ما تكون السمات الحضرية أكثر وضوحاً وتجليا بحسب منظور لويس وورث، فكلما اتجهنا نحو الاحياء الجديدة اختفت الانتماءات القديمة في التجمع البشري لصالح انتماءات أخرى كالانتماء المهني والطبقي والفئوي وبالتالي نشوء التمايز والاختلاف والتناقض.

رابعا: التحول على مستوى النمط السكني:

الخيمة هي مسكن الإنسان الصحراوي بل هي وجدانه و تكوينه، إنها رمز البساطة والامتداد، يصنعها ويحملها في حله وترحاله، إنها جزء أصيل من ذاته وثقافته. فإن كان السكن هو إسقاط العلاقات الاجتماعية فوق المجال، وهو منتوج تلك العلاقات والوجه المادي لها، فإنه في المجال الصحراوي البدوي يعتبر منشأ لهذه العلاقات بوضعه النواة الأولى لتجمع المجموعة القرابية ومكان التصريف وإعادة إنتاج القيم والمعايير، فالخيمة هي رمز الاجتماع والتضامن والقرابة، وتتجلى بساطتها في كونها مصنوعة من وبر الجمال أو شعر الماعز فيسهل حملها عند التنقل والترحال، "الخيمة من باب أولى، تمثل اجتماعي ثقافي ورمزي، إنها إسقاط لما هو اجتماعي في ما هو مكاني وعلاوة على ذلك تمثل للعالم"[27].

الخيمة في الشعور الجمعي للأهل الصحراء مرادفة «للعْمارة» التي تعني السكن والإقامة في مقابل «لَخْلا» أي الخلاء الذي

[25]. انظر: عبد الرحمان المالكي، نفسه، ص: 178.

[26] – Pierre Bonte , « Etude anthropologique et sociologique de la société mauritanienne , bilan et perspective de la recherche », in Annales de l'IMRS, n 1, 1979, p : 89

[27] – ibid, p : 28.

يحيل على الفراغ والوحشة والخطر.

تملأ الخيمة بمورفولوجيتها ورمزيتها فضاء الصحراء «الخالي» والموحش وتعمره بالأمان والحركة والنشاط، هكذا يزداد امتلاء الفضاء كلما ازداد عدد الخيام المنصوبة؛ وعندما يتزوج البدوي بالصحراء فإن زواجه لا يكتمل إلا بنصب خيمة له ولزوجته، "فالخيمة تحيل في الحسانية على معنى السكن (ماديا) كما تحيل على العائلة، خيمة فلان تعني للوهلة الأولى عائلة أو مجموعة عوائل من نفس القبيلة"[28]. الخيمة تشير إلى العائلة وإلى بداية تشكل عائلة جديدة، نقول «تخيَم فلان» بمعنى تزوج، ونقول «مُولات خَيْمتو» أي زوجته، وبنى خيمة تعني تزوج وعقد العزم على تشكيل أسرة، أما «الخيمة الكبيرة» فتدل على شخص كريم، نبيل ووجيه، أي أن الخيمة تعبر عن المكانة الاجتماعية للفرد أو للعائلة أو للقبيلة.

العلاقة بين المرأة والخيمة جد وطيدة، تبدأ ما قبل الزواج عندما تقوم الفتاة المخطوبة والأم «بصناعة خيمة وإعدادها للرْحيل» فهي أساس جهاز العروس عند تنقلها إلى خيم زوجها وأهله، وعند وصولها يتم نصب الخيمة الجديدة إيذاناً بتشكل عائلة جديدة بالمخيم.

يقسم فضاء الخيمة إلى نصفين، يخصص الجزء الغربي للمرأة والأثاث الداخلي بينما يخصص الجزء الشرقي للرجال والضيوف، وتبقى المرأة المسؤولة كليا عن كل ما يتعلق بخيمتها وبحياتها اليومية مرتبطة بها، فالخيمة تعبير عن الهوية الأنثوية في المجتمع البيضاني التقليدي[29]؛ فإن كان الفضاء الخارجي خاص بعالم الرجال فإن الفضاء الداخلي مخصص كليا لعالم النساء، لذلك فهذا الفضاء الداخلي يحمل قدسية باعتباره «محْرَما» أي مكان ممنوعاً ولوجه بالنسبة للرجال، "وغالبا ما يتجنب الزوج ولوج الجانب الخاص بالمرأة، فليس من اللائق تواجد الرجل في هذا الفضاء"[30].

ترتبط الحياة اليومية للمرأة بالخيمة، فبينما يتواجد الرجل بعيدا عن الخيمة سواء للرعي أو لجلب الماء أو لأمور أخرى، تتواجد المرأة في هذا الفضاء وتمارس فيه أنشطتها اليومية من الصباح إلى المساء، وبذلك تمثل حجر الزاوية في كل ما يتعلق بالخيمة: صناعة « لَفْليج» [31] ، خياطة الخيمة، نصبها، تنظيمها، جمعها وحملها...

إن وظائف وأدوار المرأة في الخيمة تعكس بجلاء مكانتها وأدوارها في المجتمع البدوي، ومن خلال علاقتها المادية والرمزية بالخيمة تصبح عنصرا فعالا لا يمكن الاستغناء عنه في مجتمع الرحل إنها دعامة أساسية لحياة البداوة والترحال.

بقدر ما كان الاندماج في الحياة الحضرية بطيئا وتدريجيا، كان الاستغناء عن الخيمة القاعدة المادية للسكن في البادية بطيئا وتدريجيا، ففي البداية زمع ولوج البدو لرحاب الأوساط الحضرية الناشئة أخذوا معهم خيامهم ونصبوها على هوامش المراكز الحضرية الاستعمارية مشكلين تجمعات من الخيام على شكل «فرِيْان» مثلما كانت عليه الأمور في الحياة البدوية، ومع مرور الوقت بدأ البدو في بناء منازل من المواد المتوفرة آنذاك كالحجارة والطوب، كانت عبارة عن فناء شاسع تحيط به غرف صغيرة، وجزء منه مخصص للمواشي، كما تركوا الخيمة منصوبة في وسط الفناء أو بجوار المسكن مخصصة للاستراحة والاجتماع، "فالبدوي الذي استقر بالمدن منذ أربعينات القرن الماضي استعمل الخيمة كنمط سكني في المدينة"[32].

تعكس هذه الصورة، تعلق البدو بالحياة السابقة وتأثرهم بطريقة العيش فيها، وتمثل الخيمة رمز هذه البداوة، لذلك لم يكن سهلا الاستغناء عنها، فهي مازالت حاضرة إلى اليوم على شكل علامات بصرية ورموز ثقافية، ومع تطور الحياة الحضرية والمظاهر

---

[28]– Ibid, p : 29.

[29] – Ibid, p :37.

[30] – Ibid, p : 41.

[31]– قطعة عريضة وطويلة من الثوب والقماش المصنوع من وبر الإبل أو شعر الماعز، وتتكون الخيمة من مجموعة من هذه القطع

[32] – Ibid. p :227.

والأشكال المرتبطة بها من حيث العمران والخبرات والمعارف وحتى العلاقات الاجتماعية، فإن نموذج السكن وخصائصه سيتطور بدوره، هكذا سيلجأ الحضريون الجدد إلى الاستغناء التدريجي عن الخيمة كجزء وثيق من المسكن وتركها لأغراض أخرى كالأعراس والخروج إلى البادية والتخييم ... وليتم التركيز على الدار كسكن جديد، وبقيت ترسبات البداوة حاضرة في تصميم هذا السكن وتوزيع الغرف داخله لدرجة يمكن القول معها أن المسكن الحضري بالمدينة الصحراوية يعكس تمثلات وانطباعات ساكنته البدوية، فمن خلال الشكل المرفولوجي والتصميم الهندسي نكتشف حضور الطابع البدوي، ويبرز ذلك من حيث وجود فناء داخلي كبير كتجسيد للفضاء الخارجي المقابل للخيمة، حيث يسمى «لمْراح» وهو نفس الإسم الذي كان يطلق على المكان الموجود أمام الخيمة، كما أن غرف المسكن محيطة بهذا الفناء كتعبير عن تجمع عائلي مرتبط بمركز الدار، فالغرف موزعة على أفراد العائلة مخصصة لأغراضهم الخاصة، لكن استراحتهم واجتماعاتهم تتم في الفناء الذي يشكل محمور العلاقات العائلية الداخلية.

يضم المسكن أيضا غرفة كبيرة توجد معزولة بالقرب من الباب الرئيسي تسمى محليا «لمصْرية» أو البهو الذي يخصص لاستقبال الضيوف وغالبا ما يكزن البهو مرتبا وجميلا كتمثيل عن الخيمة الكبيرة، والتي تعني أن صاحب الدار من أهل الكرم والوفادة وهي قيم بدوية بامتياز وبجانب المسكن يخصص فضاء غير مسقف كحوش أو حظيرة للمواشي، حيث يعمد البدوي إلى تربية رؤوس من الغنم أو الماعز والتي بالنسبة له صلة بينه وبين الحياة السابقة التي يحن إليها، وتمثل أيضا مورد رزق تقتات منه ومصدرا يستعين به عند الحاجة كالأفراح والمناسبات العائلية.

لطالما حاول أهل الصحراء إضفاء أبعاد رمزية على أنماطهم السكنية تعكس بجلاء رابطتهم المتواصلة مع البادية وقيمها، لذلك كانت المساكن في السنوات الأولى للاستقرار واسعة، متعددة الغرف وبسيطة من حيث الأشكال والتعبيرات العمرانية، لكن الأمر سيتطور فيما بعد مع الانسلاخ التدريجي عن كل ما هو بدوي وبتأثير من التغيرات القادمة من الخارج سيبدأ أهل الصحراء بإنشاء منازل ودور تتضمن آخر الصيحات العمرانية من حيث التصميم والهندسة والمواد المستعملة والديكور والطبقات... وترافق مع كل هذه التحولات في النمط السكني تغير في وظائف الأسرة وبالخصوص أدوار المرأة والأبناء، حيث أصبح المطبخ مفتوحا أمام الكل عكس ما كان في السابق إذ لم يكن يلجه أحد سوى المرأة، كما أن الأبناء وبتعدد حاجياتهم وتنامي استقلاليتهم أصبحوا مستقلين حتى في غرفهم الشخصية، فلكل فرد من العائلة غرفته الخاصة التي تضم حاجياته ومستلزماته ولم يعد الفناء الداخلي مكانا للاجتماع أو للتواصل، لتحول المجال دور هام في تغيير العلاقات ومكان الإقامة كظروف السكن بالدور المغلقة عكس السكن بالخيام التي كانت مفتوحة، إنه تحول من المنفتح إلى المنغلق والذي تفرضه شروط الإقامة بالمدينة.

خاتمة

رأينا فيما سبق أن التطور العمراني للمدن الصحراوية مر عبر عدة مراحل أساسية لكل مرحلة خصائصها البشرية والعمرانية وحتى التدبيرية والتنموية، بدء من الفترة الاستعمارية التي شكلت نقطة البداية في التأسيس للحواضر الصحراوية كأوساط حضرية قائمة بذاتها، وصولا للمرحلة الراهنة التي تعرف نموا ملحوظا في المجال العمراني والحضري مع تحول المدينة الصحراوية لقطب حاضن للسمات والخصوصيات الحضرية على مختلف الاصعدة، ورأينا كيف أن المحددات الخارجية وبالأخص الحضور الفاعل للدولة كان لها ولازال الدور في تشكل وتطور الحياة المدينية بالمناطق الصحراوية.

وعلى مستوى المظاهر والأشكال الحضرية، فقد رأينا أن المجتمع الصحراوي يشهد تحولا عميقا في بنياته وأنساقه ونظمه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فالاندماج الحضري سمة بارزة يوازيها الاختفاء شبه الكلي للمظاهر البدوية، وقد ساعدت مؤسسات الدولة وأجهزتها في ذلك إلى حد كبير، كما أن المجتمع المحلي انخرط بشكل سريع في حياة التجديد والعصرنة وبدأت ملامح المجتمع الحضري تهيمن على الصورة البدوية التي طبعته لعقود طويلة؛ ويتجلى ذلك في جملة التغيرات الحاصلة سواء بظهور القيم الفردانية وتغير نمط العلاقات الاجتماعية وأشكالها وانصهار الروابط التقليدية في النظم والأنساق الجديدة، من جهة أخرى أدى التمدن إلى اختفاء السكن التقليدي المتمثل في الخيمة وتلاشي الأعراف والقيم المرتبطة به، وبالمقابل ظهور السكن العصري المتمثل في الدار لتظهر معه منظومة قيمية أخرى محكومة بالخصائص الجديدة للمجال من حيث هو مجال منغلق وانعزالي، وقد حاول البدوي التعامل مع هذه المستجدات بطريقته التي حاول عبرها الانسياق مع المتغيرات والحفاظ على التقاليد فبرزت أمامنا مجموعة من مظاهر البدونة كوجود فناء واسع بالمنزل وبنصب الخيمة خارجه وغيرها من المظاهر.

قائمة المراجع

- أحمد مولود ولد أيده الهلال، "مدن موريتانيا العتيقة: قصور ولاتة وودان وتشيت وشنقيط"، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة و النشر، الرباط، 2014.
- جبرائيل جبور، "البدو والبادية، صور من حياة البدو في بادية الشام"، بيروت، دار العلم للملايين، 1988،
- عبد الرحمن المالكي، "مدرسة شيكاغو ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة"، افريقيا الشرق، الدار البيضاء 2016.
- محمد الشرايمي، "نشأة وتطور المدن الصحراوية"، مطبعة طوب بريس، الرباط،2015م ،
- محمد جسوس، "طروحات حول المسألة الاجتماعية"، منشورات الأحداث المغربية، 2003، دار النشر المغربية، ط 1،
- محمد دحمان، "الترحال والاستقرار بمنطقة الساقية الحمراء ووادي الدهب"، مطبعة كوثر برانت، الرباط، ط 1، 2006.
- محمد دحمان، "دينامية القبيلة الصحراوية في المغارب بين الترحال والاقامة"، طوب بريس، الرباط، 2012.
- محيي الدين صابر ولويس كامل، "البدو والبداوة مفاهيم ومناهج"، المكتبة العصرية، بيروت 1986،
- Capot-Rey *Robert* «L'Afrique blanche française, Le Sahara Française » T02, Presses Universitaires de la France, Paris 1959,
- Françoise Aubin « anthropologie du nomadisme », Cahiers internationaux de Sociologie. Vol 56, 1974,
- Mahmadou Ahmado Ba « Apropos de Smara » L'Afrique française, Février, 1934.- *Angel Flores Morales, «* El *Sahara español* », Alta Comisaría de España en Marruecos , Madrid, 1946,
- Pierre Bonte , « Etude anthropologique et sociologique de la société mauritanienne , bilan et perspective de la recherche », in Annales de l'IMRS, n 1, 1979,
- Rahal Boubrik, « De la tente à la ville: la société sahraouie et la fin du nomadisme». La croisée des chemins, Rabat, 2018,
- Robert Ezra Park, « Communauté Urbaine », Modèle Spatial et Ordre rurale, in Yves Grafmeyer, Isaac Joseph, *L'École de Chicago. Naissance de l'écologie urbaine*,
- Robert Ezra Park, « La ville comme laboratoire sociale », in Yves Grafmeyer, Isaac Joseph, L'École de Chicago. Naissance de l'écologie urbaine. GRAFMEYER (Y) et JOSEPH (I). Aubier, Paris, 1979.